

قراءة سيميائية لرسالة ابن خلدون المغربي إلى صديقه ابن الخطيب الأندلسي

أنجاة غفالي

جامعة - جيجل -

ملخص المداخلة:

تتناول هذه المداخلة الكشف عن أهم القيم الدلالية التي تزخر بها رسالة "ابن خلدون المغربي إلى صديقه ابن الخطيب الأندلسي". وفي ضوء ذلك حاولت الدراسة أن تطبق على نص الرسالة من جوانب بنيوية متعددة من حيث الكشف عن البنية الخطابية أي العوامل الأساسية التي يتشكل منها النص و هي المرسل و المرسل إليه ، اعتمادا على نظرية الاتصال "لياكسون" الذي سوف تكون نقطة البداية للقراءة السيميائية ذات الطبيعة المنطقية الدلالية التي تقع في المستوى العميق و تأخذ شكل نموذج محدد جدًا المسمى عند قريماس بالمربع السيميائي و انتهت المداخلة إلى صياغة مفادها -ابن خلدون - من خلال دلالة المعاني التي تزخر بها الرسالة يؤطر لمفهوم الترسل الاخواني عنده بكونه إعادة لانتاج التجربة الإنسانية التي يتفاعل معها حسيا و معنويا.

تأطير:

الترسل من أهم الصناعات الإنشائية، التي كانت تشكل نوعا بارزا في قائمة الأنواع الأدبية، المرتبطة بالحضارة الإسلامية في شتى البلدان و الدول. و نتيجة لذلك تظهر الرسائل في تجليات مختلفة لعل أبرزها الرسائل الاخوانية: وهي صناعات تقوم بالتعبير عن عواطف الوداد التي يتبادلها الأقارب و الأصدقاء فيما بينهم. ونتيجة لذلك تقوم الكتابة بدور عظيم في خدمة الأمة مما جعلها من أهم الصناعات التي يسعى طلاب العلم إلى اكتسابها في العالم العربي، و في مغربه بخاصة، و هذا ما وجدناه عند - ابن خلدون - الذي كان له اهتمام واسع بهذا الفن و هكذا فقد ضمن سيرته الذاتية التي تقع في آخر مجلد من كتابه التاريخ الصادر في طبعته الأولى عن دار الكتاب اللبناني

سنة 1983م، رسالتين تنتميان إلى النوع الاخواني جاءتا بصيغة جوابية إلى صديقه الوزير الأندلسي - ابن الخطيب -

و في هذا الإطار فقد تم تعيين نص واحد لشكل نثري مهمش في الدراسات النقدية المعاصرة هو فن الترسل، للقيام بعملية مقارنة تحليلية سيميائية.

و نلاحظ بداية في هذا الصدد - والملاحظة لا تبدو لنا زائدة - بأن كل تحليل ذي مهمة علمية باعتباره يبحث عن ثوابت أو قوانين، و لذلك سأتناول في هذه القراءة الرسالة من الجوانب التالية:

1. **البنية الخطابية:** الكشف عنها اعتمادا على العناصر الستة التي تدخل في تشكيل جهاز التخاطب في نظرية الإخبار عند "ياكسون"، و التي تنبني عليها عملية التواصل اللفظي للخطاب المتألفة من جملة الوظائف المتباينة لمجموع العناصر السابقة " ¹
 2. **البنية الدلالية:** تقديم قراءة زاخرة بقيم دلالية للتنظيم الخطابى الكامن خلف ترابطات العناصر المشكلة للبنية الخطابية التي تشكل نوعا من الكون الصغير فهو تركيبى و دلالي في الوقت نفسه.
- و عليه سنترك للتحليل تأكيد هذه الجوانب الافتراضية.

الخاتمة:

1. **البنية الخطابية:** تقوم أي رسالة أساسا على بنية التخاطب القائم بين أهم عناصر العملية التواصلية و هما المرسل و المرسل إليه اللذان يتوصلان وفق قناة و تقنين و سياق مقامي يظهر فيه الخطاب. و أن كل الرسائل تشترك في أهم الوظائف و التي هي الإقناع و الإخبار.
- هذه المستويات البنيوية التي سنحاول الوقوف عليها من خلال الرسالة التي بين أيدينا.

أ_ المرسل: Destinateur

هو مصدر الخطاب المقدم، فهو الفاعل الرئيسى الباعث على إنشاء خطاب يوجه إلى المرسل إليه في شكل رسالة كتابية" ²، فالمرسل في هذه الرسالة هو ابن خلدون (الأنا المتكلم) فهو في موضع الإعلان بأحوال الذات العامة و الخاصة من خلال رسالة اخوانية موجهة إلى الأنت (الصديق) أو المرسل إليه.

و هكذا فالمرسل هنا هو المتكفل بعملية الكتابة (الكاتب)، التي يقوم من خلالها بوظيفة انفعالية تجعله يحتل في هذا الملفوظ مكانة مركزية بصيغة الأسلوب الغير المباشر من خلال الأدوات اللغوية التي تفيد الانفعال كالتعجب، أو صيحات الاستنفار³، و من أمثلة التعجب قوله: " بعد ما جرته الحادثة بمهلك السلطان المرحوم على يد ابن عمه قريعه في الملك"⁴. أما الاستنفار فنلمسه من خلال الشكوى التي يبدأ بها بسط موضوع رسالته " و بثثته شكوى الغريب من السوق المزعج و الحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفا للتجافي عن ميهاد الأمن و التقويض عن دار العز بين المولى المنعم و السيد الكريم"⁵.

ب المرسل إليه: Destinataire

" يقابل المرسل داخل الدارة التواصلية اللفظية أثناء التخاطب..، و يقوم المرسل إليه بعملية التفكيك لكل أجزاء الرسالة"⁶. لأنه يعتبر " جزء من عملية النطق لأن اسمه مكتوب على رأس كل رسالة"⁷.

فالمرسل إليه في النص المدروس هو ابن الخطيب و هي هيئة مخاطبة مشخصة نصيا جاءت بصيغة افتتاحية سيدي في بداية الرسالة و نهايتها، و قد استعمل المرسل هذه اللفظة " نسبة إليه للمبالغة و هو من الألقاب الخاصة بالجناب الشريف فما فوق"⁸، نظرا للمكانة المرموقة (الوزير) التي كان يحتلها في البلاط الغرناطي. و منه فابن الخطيب في موقع المتلقي الخالي الذهن الذي يتقبل الأخبار المرسلة إليه من طرف المرسل.

ج الرسالة: Message

نقف من خلالها على تحديد كيفية حضور الفواعل السابقة في النص فهي " الجانب الملموس في العملية التخاطبية حيث تتجسد عندها أفكار المرسل..و تبدو علامات خطية عندما تكون الرسالة مكتوبة"⁹، أي تحول الأفكار الصوتية إلى صيغ تعبيرية تقدم الخبر وفق صياغة خاصة هي ما يشكل في نهاية الأمر الأثر الجمالي.

فابن خلدون يقدم لنا الخبر على شكل رسالة تتشكل من (مقدمة، موضوع، خاتمة) تتجلى فيها الصيغ التعبيرية من خلال الضمائر المتنوعة بين ضمير المتكلم الدال على المرسل و من أمثله (سمعي، حبيته، وقفت...).

ثم ضمير المخاطب الذي جاء على صيغة المفرد أنت (سيدي، فيك، رسائلك)، و الجمع المخاطب أنتم و منه (لديكم، ببيكم، عظتكم)، و هي صيغ جاءت للدلالة على صورة المرسل إليه خاصة عند الدعاء، التهنية، التودد، التحية، السلام، هذه العناصر التي تظهر بكثافة في مقدمة و خاتمة الرسالة و هي دليل على أن المرسل إليه لصيق بقلبي المرسل لا يفارق مخيلته.

و أهم ما تجدر الإشارة إليه أن صورة المرسل تظهر في كامل الرسالة في شكل صديق مشتاق إلى صديقه يقوم بسرد أخباره المتعلقة بالسلطة وفق سياق يجمعه بابن الخطيب هي الرتبة السياسية المشتركة بينهما (الوزارة) و بالتحديد عملية التأثير و الإقناع ، و يتمثل سياق الرسائل في مصطلحات سياسية من مثل الخلافة النصرية، الأشراف، السيد الكريم، السلطان، الحاشية، شيخ الموحدين... الخ¹⁰

أما التقنين فيمكن أن نلخصه في تعبير ابن خلدون عن مشاعر الصداقة التي تربطه بصديقه الوزير في بداية الرسالة: " سيدي مجدا و علوا... ما زال الشوق مذ نأت بي و بك الدار و استحك بيننا البعاد... و يخيل إلى من أيدي الرياح تناول رسائلك " ¹¹ ، و بالتالي هناك قوانين خاصة بالتراسل بين الأصدقاء ذوي الرتب السياسية العالية يلجئون إليها لترجمة أحوالهم الخاصة و العامة. و تتسم الرسالة بانسجام موضوعها الذي يصب في إطار سياسي ينقسم إلى ثلاث وحدات إخبارية كما يلي:

- 1- الإخبار عن أحوال الذات مع السلطة
- 2- الإخبار عن أحوال افر يقيا
- 3- الإخبار عن أحوال المشرق

هذه الوحدات الإخبارية التي يعتمد ابن خلدون أثناء عرضها على أبرز مقومات الخطاب الإقناعي و هي الحجج الجاهزة ¹² ، و مما جاء منها الاستشهاد بالشعر، القرآن الكريم،

الحكمة، و يهدف من خلالها تهوين صورة الظلم الممارس من طرف السلطة التي رسمها لصديقه عبر مختلف مراحل النص، و كذلك نجد الحجج غير الجاهزة¹³ منها حسن التقسيم الذي يسعى من خلاله الباحث إلى الإيحاء بالإحاطة بجميع جوانب الخبر بصرف نظر المتلقي عن البحث و التقصي.

و مما سبق عرضه نستنتج أن الرسالة مترابطة في محتواها من ناحية العناصر التي تدخل في بنائها (مقدمة، عرض، خاتمة)، إذ يمهّد كل عنصر للعنصر الذي يليه حتى لا يحدث في الكلام انقطاع و اهتزاز للمعنى الذي يخدم المحور العام: السلطة و السلطان. و يثمن الانسجام في البناء انسجام عناصر المسار التواصلية الستة التي يقوم عليها الخطاب التراسلي.

2- البنية الدلالية:

إن منطق الترابط السابق الذي تتميز به البنية الخطابية للرسالة، يحيلنا على مستوى تنظيمها المعنوي أي تلك الأدبية القائمة في انتظام بنية المعنى عند غريماس فالمعنى عنده " لا يتضح إلا من خلال تعارضه مع الضد"¹⁴.

و عليه فقد قام بإعادة " تحليل الأشكال المعقدة للدلالة إلى عناصر بسيطة"¹⁵، في مربعه السيميائي الشهير و ذلك لتجسيد المعنى الذي ينبني على ثلاث علاقات منطقية، التضاد، التناقض، التضمن بين ثنائيتين متعارضتين إحداهما موجبة و الأخرى سالبة، و بالتالي كان افتراض توزيع القيم السابقة في مجالين دلاليين الأول إيجابي يحفل بحيز معنوي أساسي يتضمن غياب القيمة السلبية، و الثاني سلبي يحفل بحيز معنوي أساسي مناقض للأول يتضمن غياب القيمة الايجابية¹⁶.

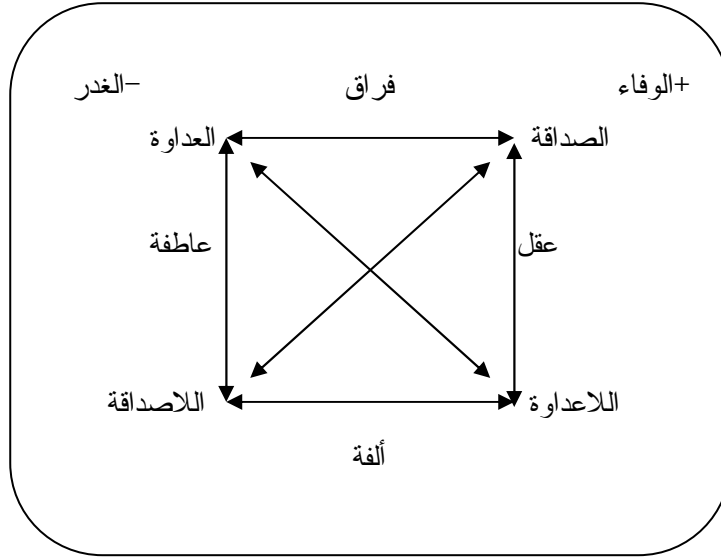
و بالانتقال إلى نص الرسالة المدروسة نجدها تزخر ببنية قيمية قائمة على الصراع بين القيم، يشكل التناقض و الثنائية فيها الأساس الذي تقوم عليها، فثنائية القيم تقوم على التعارض و تتوزع على مجالين عاميين إيجابي يجمع بين المعرفة و الصداقة و المحبة. و سلبي يضم الجهل و العداوة و الضعف.

إذن باعتماد أهم المعاني التي يطرحها المضمون العام للنص يمكن إجراء التوزيعات الدلالية الآتية:

دلالة الصداقة: وهي " المحبة و المخالاة، الجمع أصدقاء "17، فالصداقة علاقة قائمة على الصحبة و حدها " المجالسة و المخالطة و هذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه "18، و الصحبة المقصودة في النص هي العقلية إذ غياب العقل يؤدي إلى تغييبها و أقصى حقوقها " الوفاء و الإخلاص و معنى الوفاء الثبات على الحب و إدامته إلى الموت معه، و بعد الموت مع أولاده و أصدقائه، فان الحب إنما يراد للآخرة "19 .

و إن حدث و تفارقا في الحياة أدخل ذلك في قلبيهما الحزن و الألم لشدة الألفة التي تجمع بينهما و هذا ما نجده في قول ابن خلدون " ما زال الشوق مذ نأت بي..، و استحكم بيننا البعاد "20، و مقابل هذا توجد العداوة المضادة للصداقة فابن خلدون كانت تجمعه صداقة قوية جدا مع ابن الخطيب، لكن كثرة السعيات عملت على التفريق بينهما و قطع حبالها حيث قرر المرسل مغادرة الأندلس حفاظا على هذه العلاقة النبيلة، فقد كان أهل السعيات يسعون من خلال الكذب إلى بث العداوة بينهما بهدف الإيقاع بالصدّيقين و فك رباط الألفة و تفريق شملهم يقول " و بثنته شكوى الغريب من السوق المزعج "21.

و تظهر لنا الصداقة و العداوة من خلال مجال دلالتهم كما يلي:

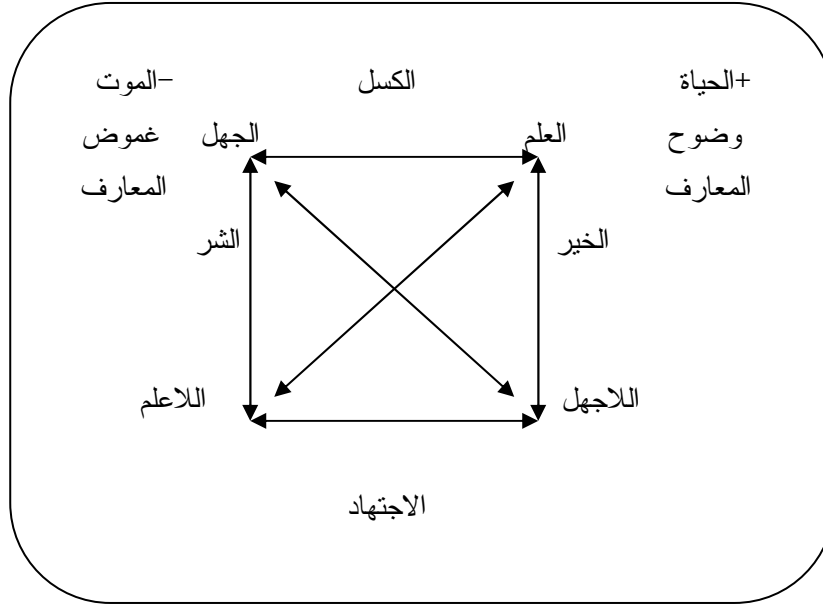


_ المربع السيميائي للثنائية صداقة/ عداوة _

من هذه الازدواجية تنتج علاقة تضاد بين الصداقة و العداوة, و التناقض بين العقل و العاطفة, و بين الألفة و الفراق.

إن التفرق بين الأصدقاء ثمرة سوء الخلق لأن اكتساب الأصدقاء لا يكون بالحلم و الجود و الصبر, كما نجد ابن خلدون رغم الوشايات بينه و بين صديقه إلا أنه حافظ على صداقته بالابتعاد و مغادرة البلد مع السكوت عن ذكر عيوب ابن الخطيب للسلطان حاملا بذلك لصفة الغدر.

_ **دلالة العلم:** هو " معرفة الشيء على ما هو به "22, و هذا ما وجدناه عند ابن خلدون الذي طلب من صديقه تزويده بما صدر عنه من الفنون النثرية يقول " و أنبأني سيدي بما صدر عنه من التصانيف الغريبة و الرسائل البليغة في هذه الفتوحات الجليلة, و بودي لو و قع الإتحاف بها "23, كما كان شديد الاهتمام بأحوال السلطة في الأندلس " و رغبتني من سيدي أن لا يغيب خطابه عني "24 و هكذا تنشأ ثنائية العلم بالعلوم المحصلة و الجهل بأخرى



ـ المربع السيميائي للثنائية العلم/ الجهل ـ

من هنا تنتج ثنائية بين العلم و الجهل و هي علاقة تضاد و تناقض القائم بين الاجتهاد و الكسل في طرف، و بين الخير و الشر في طرف آخر، ليتكون بناء لذلك مجالان دلاليان ايجابي سمته وضوح المعارف يضم العلم، الخير، اللاجهل، و سلبي سمته غموض المعارف يضم الجهل، الشر، اللاعلم، لذلك يؤدي إلى الموت أي أن الإنسان الجاهل مثل الإنسان الميت.

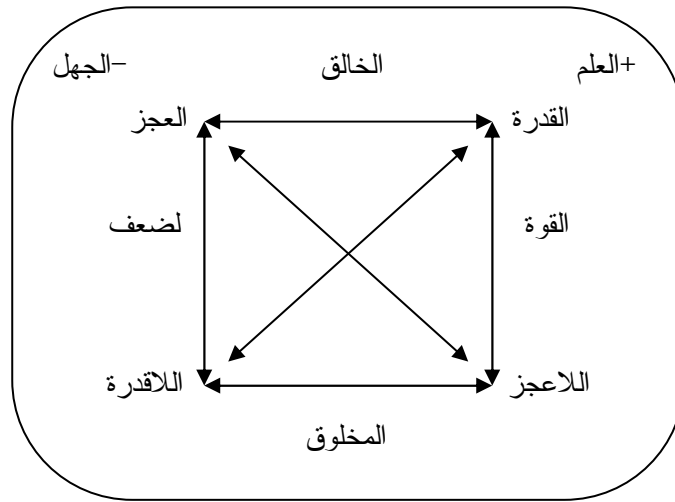
ـ **دلالة العجز:** و هو " الضعف"²⁵، و منه عجز النفس عن معرفة الغيب و هذا ما حصل للمرسل، الذي كان يجهل ما سيحصل له بعد مفارقة الأندلس يقول " و بثنته شكوى الغريب من السوق المزعج، و الحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفا للتجافي عن ميهاد الأمن... و البلاد الطيب و الإخوان البررة، و لو كنت أعلم الغيب استكثر من الخير"²⁶، لأن القدرة على علم الغيب من صفات الحي القادر العالم بجميع الأمور في السماء و

الأرض، و هذا ما جعل المشتكي يختم بثه بشرط من الآية مائة و ثمانية و ثمانون من سورة الأعراف²⁷ .

و من واجب العبد المؤمن الخضوع و التسليم بقضاء الله سبحانه و تعالى كما نلمس عجز المرسل عن معرفة أخبار الدولة في الأندلس، و هو ما جعله يؤكد على صديقه عدم الإطالة في تعييب جوابه.

و لكن بالمقابل لهذا العجز نلاحظ أن الكاتب يتمتع بإرادة و عزم قويين حيث نلمس ذلك في عدم خضوعه لمكائد فعل السعاية المتكرر في بلده فهو بهذه الإرادة استطاع النجاة و استعادة مكانته المرموقة في المجتمع .

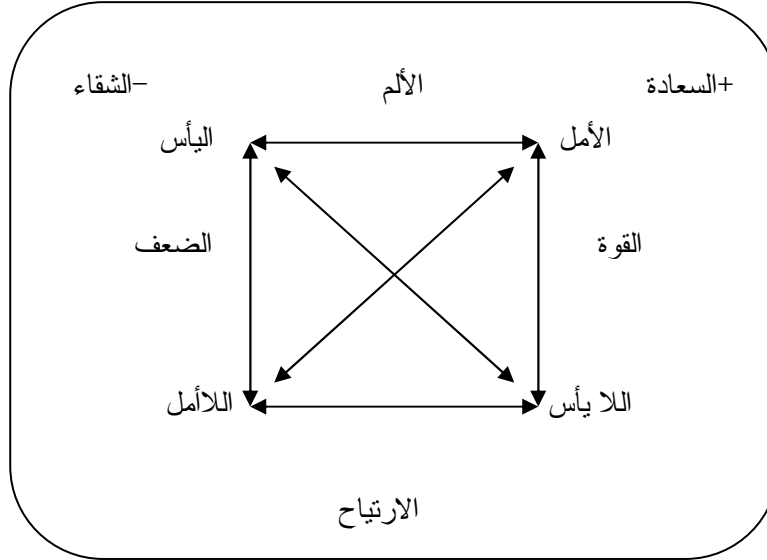
و منه فالذات عاجزة أمام قدرة الله سبحانه و تعالى فقط تعلم ما علمها و تجهل ما لم تعلم و هكذا تنشأ ثنائية العلم بالغيبي، و جهل الذات و هذا ما يتضح من خلال النموذج التالي:



– المربع السيميائي للثنائية القدرة/ العجز –

يشكل التضاد بين القدرة و العجز أساسا للتناقض بين الخالق و المخلوق من جهة و بين القوة و الضعف من جهة أخرى، و تتوزع هذه المعطيات الدلالية للمعنى في مجالين

إيجابي يجمع القوة، القدرة، اللاعجز، و سمته العلم و هي من الصفات المنزهة للخالق سبحانه و تعالى، و الثاني سلبي يضم العجز و اللاقدر و الضعف و سمته الجهل و هي من صفات المخلوق الضعيف أمام القدرة الإلهية .
و مما سبق من تفصي أهم التوزيعات الدلالية التي يحفل بها نص الرسالة يمكننا تشكيل المربع السيميائي العام الذي تفرعت منه مختلف المربعات السيميائية كما يلي:



_ المربع السيميائي العام الأمل / اليأس _

لا يبين هذا المربع التضاد الذي يحصل بين الأمل و اليأس فقط، بل انه يوضح التناقض العمودي بين الأمل و الارتياح من جهة ثانية، ليقدم مجالين دلاليين إيجابي يجمع بين الأمل و اللايأس و القوة سمته السعادة، و سلبي يجمع أطراف التضاد و التناقض أي بين اليأس و اللأمل و الضعف .

من هذا المنطلق تكون قراءتنا لدلالة المربع السيميائي الذي يطرح المعنى العام للرسالة كالتالي:

إن ابن خلدون متمسك بالأمل و الدليل على ذلك القوة التي يتمتع بها و قد استمدتها من ثقافته الدينية و يستغلها في مواجهة المحن السياسية التي يسببها فعل السعيات و هذا ما يحقق الارتياح الذي يؤدي إلى السعادة, أما من يخضع لليأس فهو متألم ضعيف في مواجهة المحن و هذا ما يؤدي به إلى الشقاء .

و خلاصة القول هي أن المعاني الدلالية التي تزخر بها رسالة ابن خلدون استطاعت أن تلغي نظرة قريماس التي تعتقد أن الثنائيات القيمية المتضادة تستطيع أن تفسر الكون. فهي عنده يمكنها أن تفسر مجالا معيناً من الحياة المادية البشرية, و لكنها عاجزة تماماً أمام القيمة الوحيدة لكونها لا ثاني لها, و إذا كانت التجارب الانسانية قائمة على ثنائية القيم و تضادها, فإن هذه الثنائيات يعود أمرها إلى الإله الواحد و هو عز و جل يأمرنا بأن نتبع القيمة الموجبة (المحمودة), و ينهانا عن اتباع نقيضتها السلبية (المذمومة) و ذلك بالاعتماد على الأوامر و النواهي الواردة في الكتاب و السنة .

3. الخاتمة:

بعد هذه القراءة التحليلية في متن رسالة ابن خلدون إلى صديقه نأمل أن تكون قد قربت للمتلقي بعض خصائصها البنيوية مما جعل الرسالة نص أدبي ممتاز تجلت فيه مختلف خصائص السيميائية المعاصرة إن على المستوى التواصلية, أو المستوى الدلالي و ما ذلك إلا لسلامة لغة الكاتب و امتلاكه ناصية القول .

- (1) . عبد السلام المسدي، الأسلوبية و الأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط2، 1982م، ص157- 158 .
- (2) . الطاهر بومزبر، التواصل اللساني و الشعرية، الدار العربية للعلوم، ط1، 2007م، ص24.
- (3) . نفسه، ص 36 .
- (4) . ابن خلدون التاريخ، مجلد 14، دار الكتاب اللبناني، د ط، ص 925 .
- (5) . نفسه، ص924 .
- (6) . الطاهر بومزبر، نفسه، ص 25 .
- (7) . تودوروف، الأدب و الدلالة، ترجمة: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1996م، ص 16 .
- (8) . القلقشندي،صبح الأعشى في صناعة الانشا جزء 6 ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة العامة لتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر، د ط، د ت، ص 16 .
- (9) . الطاهر بومزبر، نفسه، ص29 .
- (10) . ينظر يمينة تابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، مجلة الخطاب، منشورات مخبر الخطاب جامعة تيزي وزو، العدد2، 2007م، ص289- 290 .
- (11) . ابن خلدون، نفسه، ص 923 .
- (12) . الحجج الجاهزة، " هي تضمين الآيات القرآنية و الأحاديث و الأمثال و الحكم، و هي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها و من مصادفة الناس عليها و تواترها" ، ينظر محمد العمري في بلاغة الخطاب الاقناعي، افر يقيا الشرق، ط2 ، 2002م، ص90 .
- (13) . الحجج غير الجاهزة " القياس و التمثيل"، ينظر محمد العمري، نفسه، ص71 .
- (14) . نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية و التطبيق. مكتبة غريب مصر، د ط، د ت، ص42.

- (15) . جان كلود كوكي, نص المقدمة, ترجمة رشيد بن مالك, السيميائية بين النظرية و التطبيق, رسالة دكتوراه, معهد الثقافة الشعبية, جامعة تلمسان, 1995م, ص70, نقلا عن أحمد طالب, الفاعل في المنظور السيميائي دار الغرب للنشر وهران, د ط, 2002م, ص27 .
- (16) . سامي سويدان, في دلالية القصص و شعرية السرد, دار الآداب, ط1, 1991م, ص24.
- (17) . الفيروز آبادي, القاموس المحيط مجلد2 , دار العلم للجميع, د ط, د ت, ص191.
- (18) . الغزالي, مجلد2 , إحياء علوم الدين, دار الفكر, د ط, م1975, ص191.
- (19) . نفسه, ص191.
- (20) . ابن خلدون, نفسه, ص922.
- (21) . نفسه, ص924.
- (22) . الغزالي, مجلد , ص190.
- (23) . ابن خلدون, نفسه, ص926.
- (24) . نفسه, ص928.
- (25) . الرازي, مختار الصحاح, دار الكتاب العربي, د ط, 1981م, ص314.
- (26) . ابن خلدون, نفسه, ص924-925.
- (27) . يقول الله تعالى : " قل لا أملك لنفسي نفعا و لا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب استكثرت من الخير و ما مسني السوء إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون "